

الفصل الخامس

سيكولوجية العمل

تتحدد قيمة الإنسان بمقدار ما يقدمه لنفسه ولمجتمعه من أعمال. فالإنسان في بداية حياته يحبو على أربع، ثم ينتصب قائماً وتتحرك يداه، وتمتد إلى ما حوله يتعرف على الأشياء ويطوعها لأهداف معينة من خلالها يصبح إنساناً بكل ما تحتويه الكلمة من معاني، هذا هو ما أطلق عليه المرحوم الدكتور "فرج احمد فرج": ميلاد اليد العاملة.

هذه اليد تمتد لتعمل وتبدع، "العمل باب الأمل"، وكأنها تردد المثل القائل: "الإيد البطالة نجسة"، أي أن اليد التي تعمل "طاهرة"، ويصبح العمل وكأنه عبادة. وهناك عوامل كثيرة تدفع الفرد إلى بذل المزيد من الجهد والعمل منها الحصول على المال والهروب من الفقر ومشكلاته، ومنها الطموح والتنافس والغيرة... الخ.

إن إحدى علامات الصحة النفسية للفرد هي جهوده البناءة، أي مدى إسهامه في إحداث تغييرات إصلاحية في بيئته، وأن يكون إنتاجه ملائم لحويته وذكائه واستعداداته، ولعل من أشهر تعريفات الصحة النفسية تعريف "فرويد" الذي يحدد فيه الصحة النفسية بالقدرة على الحب والعمل. إذ العمل عند الكبار مثل اللعب عند الأطفال نوعاً من التعبير والتنفيس المريح.

وقد حثت الأمثال على العمل والحركة والنشاط، يقول المثل: "اشتغل الجمعة والعيد ولا تتحوش لاخوك السعيد"، ويقول آخر: "إن نام لك الدهر ما تناملوش"، والإنسان يعمل والله هو الذي يمنح، "إحنا ساعيين والرب يعين"، "إسعى يا عبد وانا اسعى معاك"، "إعمل اللي عليك والباقي على الله"، وللحث على العمل ولو بالأجر القليل يقول: "إعمل بخمسة وحاسب البطال"، "الزبدة ما تطلعش إلا بالخض"، ولا بد من إتقان العمل، فلا عبرة بكثرة العمل بدون إتقان "سبع مناخل والقش داخل"، فلا بد وأن يكون العمل "شغل المعلم لابنه". وإذا كان المثل يقول: "الجوع كافر"، أو "لا كرامة لجائع"، "الي بياكل من بيت غيره جعان" فقد قدم العلاج في قوله: "الي وراه طلق ما ينامش"، "أكل العيش يحب الخفية"، "الي ما يقعد في الكوم ويتعفر يجي في الجرن ويتحسر".

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) (١)، فالدعوة إلى الأكل

(١) سورة البقرة: 172.

هنا ليست دعوة إلى الاستهلاك بقدر ما هي دعوة إلى إنتاج ما يؤكل، تمامًا كما أن الدعوة إلى الإنفاق هي دعوة إلى تحصيل ما ينفق منه، "الإيد التعبئة شبعانة"، ومن ثم تأتي أهمية الاكتفاء الذاتي في إنتاج ما نأكل؛ لأن "من ملك لقمته ملك حرته"، و"الي أكله ما هو من فاسه رأيه ما هو من راسه"، بل يؤكد المثل على ضرورة العمل اليومي فيقول: "إزرع كل يوم تاكل كل يوم"، ومن داوم على العمل فلا بد وأن يجني الكثير ولو طال الزمن "الي يغزل كل يوم مية يعمل في السنة زعبوط ودفية"، "إحضر إردبك يزيد"، "بات كلب واصبح سبع".

"وبالعمل تتحقق وحدة الإنسان والعالم، لكن العمل ليس نشاطاً فردياً عشوائياً، العمل دوماً نشاط اجتماعي تاريخي، العمل هو التجسد الحقيقي للوجود الإنساني، فبالعمل الاجتماعي المنتج يكسر الإنسان طوق وحدته، ويتجاوز حاجز عزلته ويحقق جوهر ماهيته بما هو إنسان، بما هو وجود في العالم، وفي نفس الآن وجود في حضرة الآخرين⁽¹⁾" ومن ثم حث الأمثال على العمل الجماعي، "الإيد لوحدها ما تسقفش"، "الققة ام ودين يشيلوها اثنين"، "إيد على إيد تساعد"، وللمثل وجه آخر "إيد على إيد تكيد"، وأيضاً "إيد على إيد يكبر ويزيد"، و"البركة في كتر الأيادي".

إن الأشخاص الأسوياء أكثر توجهاً خارج ذواتهم، بينما يميل غير الأسوياء إلى أن يكونوا أكثر توجهاً داخل ذواتهم وأكثر تقيداً بعالمهم الداخلي. فأصحاب الفريق الأول يبدون اهتماماً بالناس وبالمواقف والأشياء، بل ويتلذذون من اتصالاتهم الاجتماعية أكثر من معاشتهم لعالمهم الداخلي.

ولذلك تجذ المثل يسخر من الشخص غير المتعاون، أو الذي يعرض تعاونه في الوقت غير المناسب، أو بعد انفراج الأزمة فيقول "بعد ما طارت ساعدها بقولة هش"، ويقول آخر "البقرة بتطلق والعجل بيحزق ليه؟ قال تحميل جمائل".

والعمل الجماعي له ما يناسبه من حيث النوع فلا يصح الاجتماع على عمل يمكن فعله عن طريق الفرد الواحد، حتى أن المثل يقول: "ست وجاريتين على قلي بيضتين"، ويقول آخر: "الست والجارية على صحن بسارية".

(1) فرج احمد، مرجع سابق، ص 121.

وفي الوقت الذي وجد فيه أمثال تشجع على التكاسل كقولهم: "الي جري والي مشي ما راحش من الدنيا بشي"، فقد ذمت أمثال أخرى الشخص المتكاسل، والبطالة فقال: "زي حمير التّراسة يتلكك على قولة هس"، "أكل ومرعى وقلة صنعة"، "الي ما لوش غرض يعجن يقعد ست أيام ينخل"، "قاعدة على قاعدة فات النهار وشممت الأعدا"، والمهمل المتكاسل يقول له المثل: "البحر غريال الحايبة"، فالعمل يحتاج إلى جهد وتحمل المصاعب، ولذلك قال المثل: "مفيش حلاوة من غير نار"، ويقول آخر: "الي ياكل العسل يصبر لقرص النحل"، "الي ما يشقى ما يلقي"، وإذا كان العمل إرهاق وتعب فمن الممكن تفريقه على الأيام "فرق شمله يخف حمله".

وفي الوقت الذي يتعاطم فيه العمل وقيّمته، فماذا يقال عمّن لا يعمل؟ "عاطل"، وبالتعبير الدارج "صايغ"، والعطل من الشيء غيابه، فعندما يبطل مفعول الدواء ينتهي جوهر فاعليته ووجوده، وكذلك عندما يتوقف العمل ينعدم الوجود الإنساني، فتراجع قيمة العمل وتنخفض الإنتاجية، ويترتب على ذلك سوء توزيع عائد العمل المتواضع أصلاً، فيتعملق الثراء، ويتعملق الفقر أيضاً.

يُتخَم الأثرياء، ويجوع الفقراء، ويزحف الفساد ويواصل الزحف من أعلى إلى أسفل، ومع مواصلة الزحف يزداد اليأس ويكون الصمت.. صمت الجوع المحرومين⁽¹⁾، وما أكثر أشكال الهروب، فكان الهروب للسرقة وعالم المخدرات، ولسان الحال يردد المثل: "الضرورة لها أحكام".

وقد وصلت قيمة العمل إلى الدرجة التي جعلت الأطباء النفسيين يستخدمونه في العلاج، وهو ما يسمى بالعلاج بالعمل Occupational Therapy وهو شكل من أشكال العلاجات النفسية لتحقيق عديد من الأهداف، لأن المريض غالباً ما يكون منسحباً من الواقع فيصبح العلاج بالعمل وسيلة لإعادته إلى الواقع، كما أنه يعطي المريض إحساساً بالثقة، وصدق المثل عندما قال: "تراب العمل ولا زعفران البطالة".

(1) فرج احمد، مرجع سابق، ص 85 بتصرف.

إن الإنسان في كل عصر وأوان هو الهدف، وهو الوسيلة والمقصد، هو الغاية الأسمى لكل ما يمكن أن نفكر فيه ونأمله أو نتوقعه، هو هدف أي إصلاح .. وكل إصلاح ووسيلته، وهو محور أي تقدم .. كل تقدم ومبتغاه.